مهارة البوليس السري

يمثل جورج مصر العربي في هذا الفصل رواية "الطواف حول الارض" وخلاصتها ان رجلاً غنياً في لندن خاطر جماعة سنة ١٨٧٢ على ان يدور حول الارض في ثمانين يوماً فيعطوه مليوني فرنك والاَّ دفع اليهم ذلك المبلغ. واتفق ان بنك انكلترا سُرق في ذلك الحين فبثت الحكومة العيون والارصاد ورجال البوليس السرّي بغية الاهتداء الى السارق. فركب الطوّاف باخرة من يوكوهاما في انكلترا قاصداً السويس وركب احد رجال البوليس السرّي تلك الباخرة ايضاً ولا يعلم الواحد منهما غرض الآخر. وبينما كانا في اثناء الطريق علم البوليس من خادم الطوّاف ان سيدهُ ذو مال فاشتبه في كونهِ السارق لا سيما وانهُ سافر من لندن يوم سرقة البنك فلزمهُ وكان اتبع لهُ من ظلهِ وطاف معهُ حول الارض ماريْن بالسويس فعدن فبباي فكلكتا ثم عبر الباسيفيكي حتى نزل في سان فرنسسكو. وكان هذا البوليس متنكّر فتارة يتظاهر بالجنون وطوراً يتزيّا بزيّ عبد اسود او غيره. ثم اجتاز الولايات المتحدة من الغرب الى الشرق فقطع حدود اميركا الطريق على قطار سكة الحديد الذي كانا راكبين فيهِ لكنهما نجوا بالحيلة وسافرا قاصدين نيويورك ومنها ركبا البحر الى انكلترا حتى اذا بلغاها قبض البوليس السري على الطوّاف ظانّاً انهُ ظفر بغيتهِ ولكن ظهر بعد ذلك ان الطوّاف لم يكن السارق وان تعب البوليس ذهب ادراج الرياح

على انهُ وان كان البوليس السري قد اخفق سعياً في هذه الحادثة فقد طالما عاد بصفقة الرابح من تفتيشهِ وتنقيبهِ واهتدى الى المجرم بصبرهِ وفطنتهِ كما هو معروف ومشهور. والحكايات كثيرة في هذا الصدد عن بوليس لندن وباريس ولكن حكايات بوليس نيويورك تضاهي الاولى في غرابتها. واشهر من اشتهر بوليس نيويورك السرّي رجل اسمهُ بنكرتن. فانهُ الف جمعية سنة ١٨٥٠ تدعى باسمهِ وانشأ لها فروعاً في اعظم مدائن الولايات المتحدة فكانت اعظم مساعد للحكومة على اقتفاء اثر المجرمين من قتلة ولصوص

ومن اعظم اعمال جمعيتهِ ان عمّالهُ في مدينة بلتيمور ومدينة فلادلفيا علموا بكيدة لاغتيال رئيس الولايات المتحدة عند مروره في بلتيمور قاصداً وشنطون وكان الرئيس حينئذٍ لنكلن فأبلغ بنكرتن اصدقاء الرئيس خبر الكيدة فوكلوا اليهِ تدبير ما يلزم لسلامتهِ فغيّر الطريق الذي كان الرئيس عازماً ان يسير فيهِ بغتةً وارسلهُ الى الخاصة سالماً فردّ كيد الكائدين في نحورهم

ومن حكاياته انهُ كان يسبح في الولايات الجنوبية لاشغال تختص بعملٍ فوصل ذات يوم مدينة من المدن والناس في هرج ومرج بسبب سرقة بنك كبير فيها وقتل صراف البنك في اليوم الذي وصل بنكرتن اليها . فاخذ يدرس الحادثة درساً مدققاً والناس لا يعلمون من هو حتى اشتبه في صديق للصرّاف من المعروفين ولم يكن احد قد اشتبه فيهِ البتة . فسعى حتى أدخل احد عماله في خدمة هذا الرجل وكان في غرفتهِ التي ينام فيها انبوبة للكلام فنهض الخادم ذات ليلة وسيدهُ نائم ووقف عند طرف الانبوبة الآخر وجعل يئن انين المريض ويستغيث فهب سيدهُ من نومهِ مذعوراً وأرق طول ليلهِ وكانت اعصابهُ قد كلّت من فرط وخز ضميرهِ فجاءت هذه الليلة الهائلة تنعتهُ على أبالة . ولم يكد الصباح يلوح حتى فرّ هارباً الى حيث لم يدرِ احد مكانهُ بعد ان ترك خلفهُ اقراراً صريحاً بانهُ هو القاتل

ولكن عمل بنكرتن هذا لا يذكر في جنب تخليصهِ اهل ولاية انديانا وولايتين أخريين من فئة من اللصوص مؤلفة من اربعة اخوة ابوهم سويسري وامهم دنمركية . وكانوا اشداء البنية طوال القامة عاثوا في البلاد قتلاً وافساداً حتى كان الناس يرتعدون من ذكر اسمائهم . والتفَّ حولهم جماعة من اللصوص فكانوا يقطعون الطرق على القطرات ويتلفون الركاب ويسلبون ما فيها من الاموال مما كان يبلغ احياناً الوفاً من الجنيهات

وحدث في احدى غزواتهم انهم دخلوا مدينة من المدن المشهورة وكسروا صندوق النقود الذي في دار الحكومة وسلبوا ما فيهِ فعهد الى بنكرتن في تتبع اثرهم والقبض عليهم . وكان الاخوة الاربعة وجماعتهم يقطنون مزرعة قرب مدينة سيمور في انديانا و بنكرتن يعلم ذلك فعزم على اختطاف واحد من الاخوة وابقائهِ رهناً او يردوا المال المسروق واخذ يدبر الوسائل لذلك . وقدم حينئذٍ ثلاثة غرباء مدينة سيمور ففتح احدهم حانة ودخل الثاني خدمة سكة الحديد واحترف الثالث القمار . فتعرّف المقامر باحد الاخوة الاربعة واسمهُ جون ودعاهُ ذات مساء للنزهة في ناحية المحطة ومشاهدة القطر الذي يصل من الغرب فذهب معهُ وهو لا يرتاب في اخلاصهِ لهُ ولا يدري بالمكيدة التي دبّرها للقبض عليهِ . وبينما كان مشغولاً بمراقبة الركاب اذا بستة رجال اشداء احاطوا بهِ احاطة السوار بالمعصم وشدوا وثاقهُ ومعهم رجلان آخران وهما بنكرتن وواحد من كبار موظفي الحكومة في الولاية التي سرق المال منها فقرئت عليهِ ورقة اتهامهِ وكانت قد أُعدت قبلاً ثم نقلوهُ الى القطر وساروا بهِ قبلما يدري اخوتهُ بما جرى الى حيث حكم عليهِ بالحبس ٢٥ سنة مع الاشغال الشاقة

فلما علم الاخوة بالقبض على اخيهم زادوا عتوّاً وفساداً فكانوا يتطوفون ظهور خيولهم

ومعهم خمسة اوستة من اصحابهم ويطوفون في البلاد يقطعون الطرق على القطرات ويسلبون ما فيها وينهبون البنوك ويلقون الرعب في القلوب . وفي احد الايام دخلوا مدينة من مدن انديانا في رائعة النهار ونهبوا بنكها واحد القطرات الواصلة الى محطتها ولم يجسر احد ان يقاومهم وفرّوا باسلابهم سالمين . ولم يمضِ على ذلك وقت طويل حتى اوقفوا قطراً آخر وسلبوا منهُ ٢٠ الف جنيه نقداً فما زال بنكرتن يحتال عليهم حتى قبض على ثلاثة من رفاقهم وسلمهم للمحاكمة . ولقيهُ في اثناء الطريق جماعة من الرجال وهم مسلحون ومقنّعون وتبضوا على الاسرى الثلاثة وشنقوهم على شجرة واحدة انتقاماً . ومثل ذلك جرى للاخوة الثلاثة فيما بعد

واعجب اعمال هذه الجمعية واغربها قبضها على اخوين سرقا مليون جنيه من بنك انكلترا اسم احدهما جورج بدويل والآخر اوستن . وتفصيل الخبر انهما قضيا زماناً في نيويورك يحرّقان على سرقة البنوك بتزوير الاوراق فجمعا مالاً طائلاً من ذلك الى ان كاد يتضح امرهما فقصدا اوربا ومعهما رجل اسمهُ ماك لعلمهم يجدون فيها مجالاً اوسع لاستخدام حرفتهم . فلم يمضِ عليهم بضعة اسابيع حتى جمعوا اثني عشر الف جنيه بتزوير الاوراق المالية ثم قصدوا لندن فخطر لاوستن ان يجرّب سرقة بنك انكلترا فغيّر اسمهُ وسمى نفسهُ وارين وتعرّف بخياط كبير من عملاء البنك فقدمهُ الى البنك فاودع فيهِ اربعة آلاف جنيه وسافر هو واخوهُ الى فرانكفورت بالمانيا وكلف صرافاً معروفاً فيها فكتب كتاباً منها الى محافظ بنك انكلترا وضع ضمنهُ تحاويل على البنك بثلاثة عشر الف جنيه وطلب منهُ ان يودعها باسم وارين وكان هذا الكتاب ممضي بامضاء الصرّاف وقد قال فيهِ ان وارين من اكبر عملائهِ وانهُ ارسل اليهِ ذلك المبلغ من بطرس برج ليودع البنك عن يدهِ

ثم سافر وارين الى باريس وكتب الى محافظ البنك كتاباً يستشيرهُ في مشترى بعض الاسهم والسندات . فجاءهُ الجواب بان يشتريها فكتب حوالةً بعشرة آلاف جنيه على حسابهِ في البنك وطلب من المحافظ ان يشتري لهُ بها اسهماً وسندات ويرسلها اليهِ فلما وصلتهُ باعها وارسل المال الذي باعها بهِ الى البنك ليودع فيهِ وطلب مشترى سندات اخرى . وظلّ يفعل كذلك حتى اعتقد محافظ البنك انهُ من كبار الاغنياء . ثم سافر الى لندن وقابل المحافظ فأوقع في نفسهِ انهُ رجل من ارباب الملايين

وكانت الخطوة الثانية التي خطاها انهُ جعل يشتري كمبيالات صحيحة ويقطعها من البنك قبل ميعاد الاستحقاق بثلاثة اشهر اوستة وقصدهُ من ذلك ان يحمل البنك على الثقة

بو فلا يشتبه فيهِ اذا عرض عليهِ كمبيالات مزورة ليقطعها لهُ

بقيت الخطوة الثالثة وهي عرض الكمبيالات المزورة على البنك وقبض قيمتها ولكنهُ اتفق مع رفيقيهِ ان يسافر من انكلترا قبل ان تعرض الاوراق المزورة على البنك وان يقوم مقامهُ في غيابهِ رجل اسمهُ تويس فاخذ من رفاقهِ ٣٠ الف جنيه على الحساب وسافر الى باريس حيث تزوج فتاة انكليزية لم تكن تعرف من امرهِ شيئاً ومنها الى المكسيك فكوبا حيث جعل يعيش بالبذخ والاسراف ويوم الولائم في منزلهِ من غير ان يعلم احد شيئاً من دخيلة امرهِ

وفيما كان يقرأ ذات يوم جريدة نيويورك هرلد اذا فيها ما يأتي مكتوباً بأحرف كبيرة " الاحتيال على بنك انكلترا . سرقة ملايين . هرج ومرج في لندن . جائزة خمسة آلاف جنيه لمن يقبض على السارق وارين " وتلي ذلك تفصيل الحكاية . اما وارين فلم يخش بأساً اذ ما من احد في اوربا كان يعرف محلَّ اقامتهِ ولا اسمهُ الحقيقي

ومرَّ على ذلك اسبوعان وهو ناعم البال حتى اذا كانت ذات ليلة وقد اوى وليجة شائقة لجماعة من اصدقائهِ اذا بباب غرفة الطعام قد انفتح ودخل نفر من الجند في مقدمتهم رجل بثياب ملكية فدنا منهُ ووضع يدهُ على كتفهِ قائلاً " يا اوستن بدويل اني اقبض عليك بموجب هذا الامر الصادر من حاكم كوبا العام . انا جون كرتن من اتباع بنكرتن "

هذا ما جرى لاوستن الذي انتحل اسم وارين واما ما جرى لرفاقهِ فانهُ ثاني يوم سفرهِ الى باريس جعلوا يقدمون الاوراق المزورة الى البنك ويقبضون قيمتها والبنك لا يشتبه فيهم لكثرة معاملتهم لهُ حتى اجتمع عندهم نحو مليون جنيه ذهباً في اشهر قليلة . واتفق ذات يوم ان المزورين ارسلوا ورقة الى البنك ليقبضوا قيمتها ولكنهم نسوا ان يؤرخوها فاعادها البنك اليهم مع احد خدمهِ ليؤرخوها فكشف امرهم . وفي اليوم الثاني جاء الثلاثة الى البنك وهم لا يدرون بما جرى فقدم تويس ورقة وطلب ان تدفع اليهِ قيمتها فقبضوا عليهِ وكان رفيقاهُ ينتظرانهِ خارجاً فلما علما بما جرى لهُ فرَّا هاربين . فاستدعي روبرت بنكرتن بن بنكرتن المذكور آنفاً وبعض رجالهِ الى لندن ووكل اليهم التفتيش عن المجرمين . فاهتدوا الى حيث كان ماك يقطن ووجدوا هناك ما اثبت انهُ شريك لوارين في الجريمة . ثم علم بنكرتن ان ماك سافر الى فرنسا ومنها الى بروكسل عاصمة البلجيك فنيويورك وعلم اسم الباخرة التي سافر فيها فابلغ رجالهُ في نيويورك تلغرافياً بذلك فلما وصلت الباخرة قبضوا عليهِ . وقبضوا على جورج بدويل في ارلندا

اما اوستن فانتُدب وليم بنكرتن اخو روبرت وجون كرتن لاقتفاء اثرهِ والقبض عليهِ .

فاستدلَّ من خبرته بالامور المالية انهُ لا بدَّ ان يكون قد سكن قبلاً شيكاغو او نيويورك وقضى كرتن اياماً طوالاً يبحث في مكاتب السماسرة ويستعلم عن اسماء الشبان الذين كانوا يترددون اليها قبلما سرق البنك فاختار اسماء عشرين منهم ثم اختار اربعة فقط من بين العشرين واذا اسم اوستن بدويل يسبها فتتبع تاريخهُ فوجد انهُ سافر الى اوربا وعاد منها الى اميركا وجيوبهُ مثقلة بالمال فقال في نفسهِ انهُ هو الرجل . وسمع من احد معارف بدويل ان بدويل كان يقول اذا جمعت قدراً معلوماً من المال سكنت الاقاليم الحارة فتوجه الى فنزويلا وكتب كتباً الى قناصل اميركا في جزائر الهند الغربية يسألهم فيها ان يرسلوا اليهِ اسماء الشبان الاميركيين الذين قدموا مدنها الكبيرة حديثاً واهتدى اليهِ من ذلك . وحكم على كل الذين اشتركوا في سرقة البنك بالسجن المؤبَّد

اللئيمُ والكريمُ

أبى الله ان اُرمي اللئيمَ بتهمةٍ ... فيبدو بهِ لؤمي بشاهدِ عدلهِ
لكلِّ امرءٍ قسطٌ من اللؤمِ ثابتٌ ... بحجةِ إرثِ الطبعِ ان يتحلَّلهِ
فان لم يبنْ في عينهِ عيبُ ذاتهِ ... رآهُ بعينِ الغيرِ في ذاتِ شكلهِ
فمن ذا الذي ما جاورَ اللؤمُ قلبهُ ... وكم يا تُرى جازى الصنيعَ بمثلهِ
وايُّ امرىءٍ ما خانهُ الدهرُ في فتىً ... اذا لان عطفاً كان ارقَّ منهِ
فمن سارقِ الالحاظِ ساحرُ مكرهِ ... ومن بارقِ الالفاظِ باهرُ ختلهِ
إناءٌ بهِ الاكدارُ تلقى لصدعهِ ... وينفدُ صافي الماءِ منهُ لسيلهِ
فان تُفنِ الاحسانَ فيهِ اضعتهُ ... وما اضيعَ الاحسانَ في غيرِ اهلهِ
وان توفِ عهدَ الصدقِ يعقدْ بحبلهِ ... وان تصفِ خمرَ الودِّ يفسدْ بخالهِ
وان تصطنعهُ عدَّ فضلكَ زلةً ... وان تعفُ عنهُ صرتَ رقّاً لذلهِ
وان تهدِ درّاً بجودكَ يقلبْ ... عليكَ بضرٍّ بعدَ وطأةِ رجلهِ
"ومن تكدِ الدنيا على الحرِّ يرَ ما" ... اسيرًا لهُ بالفضلِ يزهو بفضلهِ

***

فعزَّ عن الدنيا واهليكَ انها ... ظلالٌ لهم والشيءُ متبوعٌ ظلهِ